شخصية الجاحظ:

هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ و لد سنة 160 هـــ في الأغلب في مدينة البصرة و فيها نشأ و قضى أكثر عمره ، وقد كان أسود اللون، قيل لم يكن عربيا، بل مولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكِنَاني[1] و قيل بل كان عربيًّا خالصًا و إنما جاءه السواد مِنْ قِبَل إحدى حدَّاثه في عمود نسبه و الحقيقة أنَّ هذا السواد لم يكن محرّكًا، ولَا عُقْدَةً ولا دَافعًا لدى الجاحظ سواء بالسلب أو بالإيجاب .

لقد كان الإمام الجاحظ إنسانًا مُتَزِنًا يحاول أن يخضع لقانون العلم، وقد فرض عليه منطقه العملي مَنْطِقًا خَاًصا، كَان مَدْرسةً خاصة و قلمًا متميزًا و لم تكن هذه السِّمة التي قد تكون لنسبه أو لوجود أسود ما في شجرة آبائه و أجداده .

تعلم الجاحظ على الأدباء المسجديين، كما أَخَذَ كثيرًا من علوم العربية عن أبي عبيدة معمر بن المثنى و الأصمعي و أبي زيد الأنصاري و أَخَذَ النحو خاصة عن الأخفش و علم الكَلَام عن أبي إسحاق ابراهيم النظام على أنْ علمه الواقع جاء من مطالعته الخاصة في الكتب[2].

كان الجاحظ صحفيًا بإمتياز في زمن هيمنة المشيخة، و في زمن سيطرة المدارس التعليمية ووفرة المشايخ و لعلَّ هذا التكوين الخاص الذي هو في حقيقة الأمر إستثناء بالنسبة له ، له أثره و سيكون هو الملّون الحقيقي لشخصية الإمام الجاحظ .

و كان في أول أمره ضيق الرزق يبيع الخبز و السمك بسيحان ولم يبزغ نجمه إلا بعد أن إنتقل من البصرة إلى بغداد لما دخلها المأمون آتيا من خراسان سنة 204 هـــ .

ثم عَلاَ نجمهُ لما إتصل بوزير المعتصم محمد بن عبد الملك الزيات فأصبح من الموسرين، و يبدو أن الجاحظ عمل مدة يسيرة في ديوان الرسائل مع ابراهيم بن العباس الصولي، في أيام المأمون و لكنه كره حياة الديوان وَ شِيكًا فَتَرَكَهَا .

1- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الكتاب العربي، ط5. 74/16 .

2- عمر فروخ تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين 304/2 .

في ذلك الحين كان الجاحظ صديقا لإبن الزيات الوزير مناوئًا للقاضي أحمد بن أبي داؤدٍ و كان يقول فيه << ابن أبي دؤاد أعلم بما هو علم بالفقه و هو لا يعلم من الفقه شيئا>>.[3]

فلما نكب الخليفة المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات و قتله و أصبحت لأبن أبي داؤد اليد العليا في الدولة استقدم الجاحظ مقيدًا في الحديد ثم عَفَا عَنْه في حديث طويل و قرَّ به و أحسن جوائزه ثم إتصل الجاحظ بالفتح بن حاقان الذي وزر للمتوكل نحو سنة 240 هـ و نَالَ خطوةً عِنْدَه .

في هذه الأثناء زارا الجاحظ سامراء ثم زار دمشق وأنطاكية ولَعَلَ ذلك كان في صفر من سنة 244ه حينما نَقَلَ المتوكل العاصمة إلى دمشق ثم عاد فردها إلى سامراء لأن مناخ الشام لم يوافقه .

فُلِجَ الجاحظ في أواخر عمره و عاش في الفالج سبع سنوات و لكنه ظل حاضر الذهن قوي الذاكرة .

قادرًا على التأليف، و في المحرم سنة 255 هـ سقطت عليه مجلدات من كتبه فمات و عمره حوالي 96 سنة .

كان الجـاحظ كما يدل لقبه جاحظ العينين أسود دميم الخلقة قصيرًا و لكنَّه كان قوي البنية نشيط الجسم، عظيم الذكاء قوي الملاحظـة واسع التفكير بارعًا في كثير من عـلـوم اللغـة و الأدب و من العلوم الطبيعـيـة و العقليـة و كان يجمع إلى ذلك حب اللـهو والدُعَـابَـة و المَرَح الأصيل و كذلك كان مفكرًا حرًّا قليل الاهتمام بما تواضع عليه الناس وخصوصا فيما يتعلق بسلوكه الشخصي في الحياة و لم يتزوج الجاحظ و لكنه كان يتخذ جارية بعد أخرى .

3- مصدر سابق،304/2 .

أسلـــوبه:

إتخذ الجاحظ أصول البَلاَغَةِ أسَاسًا للنقد و تبيان مراتب الكلام و مع أنَّه لم يَجْرِ في ذلك على أسلوب منظم أو شامل فإنه حاول أن يضع أُسسًا لمعرفة الكلام الجيّد و يرى أنَّ حقيقـــــــة البيـــــــان هي الكشف عن المعنى بألفاظٍ تـــــؤدي إلى الفهم و الإفهام، إن المعاني كثيرة متشبعة و لكنها مستورة في الصدور و إنما الفضل في الدلالة عليها باللفظ الحسن، و أن الكلام الفاسد الساقط آلف للناس العاديين و أسرع إلى العلوق بألسنتهم وأشـــــــــــــــد إلتجـــــــامًا بالطبائـــــــــــع[4]، و الانسان بالتعلم و التكيف.

ويطـــــول الإختلاف إلى العلمـــــــــاء والمدارسة و قراءة كتب الحكماء يجود لفظه و يحسن أدبه، << وكما ينبغي أن يكون الكلام عَاميًا ساقطًا سوقيًـــــا، فكذلك لا ينبغي له أن يكون غريبا وحشيًا إلا أن يكون المتكلم به أعرابيـــــــاً، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي، من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات كما أنَّ الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف و المليح و الحسن و القبيح، وكلّه عربي، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع السخيف بأكثر من امتاع الجَزْلِ الفَخْمِ من الألفاظ الشريفة الكريمة >>.[5]

و الجاحظ يوافق بعض الربانيين من الأدباء في قوله: "إنَّ المعنى إذا إكتسى لفظا حسنًا أعاره البليغ مخرجًا سهلاً ومنحه المتكلم قولاً متعشقا صار في قلبك أحلى ولصدرك أَمْلاَ والمعاني إذا كسيّت الألفاظ الكريمة و ألبست الأوصاف الرفيعة تحوّلت في العيون عن مقادير صورها وأرْبَت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت به وعلى حسب ما زُخْرِفَتْ ..."[6].

4- عمر فروخ تاريخ الآدب 305/2 وما بعدها بدون تصرّف .

5- الجاحظ ، البيان و التبيين، دار الخانجي ، ط3، 1974، ص : 77 ، ج(1).

6- مرجع سابق، ص77، وما بعدها بدون تصرف .

و كان له شيئ من الشعر هو من باب الشعر العلماء معاني و منطقًا و مكانةً في التعبير و لكن بلا طبع ولا ديباجة ولا رونقٍ و يبدو أنَّ الجاحظ كان قد حاول التكسب بالشعر في أول أمره و في شعره شيئ من الحكمة .

أما أسلوبه في كتبه نوعان، أسلوب أنيق فيه صناعة و موازنة و سجع و تأنق في إختيار الألفاظ و ترديد المعنى الواحد في تراكيب مختلفة، و يكاد يكون هذا الأسلوب مقصورا على مقدمات كتبه و مطالع فصوله، ثم له أسلوب يجري على السليقة ويعالج به الموضوعات التي يتناولها في متون كتبه .

و الجاحظ في أسلوب فصيح الألفاظ متين التراكيب يمزج الجد بالهزل و يكثير من التهكم، كما يكثر من الإستطراد و الإستطراد هو أن يخرج الكاتب عن الموضوع الذي يعالجه إلى موضوع آخر قريب منه أو بعيد، و كان الجاحظ يفعل ذلك ترويجا عن القارئ ودفعا للملّل عنه.

و الأسلوب الذي يجري فيه الجاحظ على السليقة شديد العلة بأسلوب إبن المقفع في كتاب لكليلة و دمنة إلاَّ أن أسلوب الجاحظ أمتن و آنق [7].

كتب الجاحظ:

كتب الجاحظ كثيرة جدًا و متنوعة الموضوعات فقد كتب الجاحظ في معظم الفنون التي كانت معروفة في أيامه، فمن كتبه :

1- نظم القرآن
2- مسائل القرآن
3- فضيلة المعتزلة
4- الرّد على اليهود
5- الرّد على النصارى
6- الرّد على العثمانية
7- إمامـــــــــــــة معاوية

7- عمر فروح مصدر سابق ، 2/ 306-307 بدون تصرّف.[7]

8- إمامة بني العباس
9- كتاب اللصوص
10- صياغة الكلام
11- تصويب على في تحكيم الحكمين
12- إفتخار الشتاء و الصيف
13- كتاب المعلمين
14- كتاب الجواري
15- فخر القحطانية و العدنانية
16- أخلاق الملوك
17- السنوية بين العرب و العجم .
18- المزاح و الجد .
19- رسالة في مدح النبيذ
20- رسالة في ذم النبيذ
21- رسالة في مدح الكتاب
22- رسالة في ذم الكتاب
23- رسالة في من سمى من الشعراء عمرا .
24- الاستبداد و المشاورة في الحرب
25- رسالة في القضاء و الولاة.
26- كتاب الملوك و الأمم السالفة و الباقية
27- السرد و الشطرنج
28- غشّ الصناعات
29- كتاب ذوي العاهات[8]

هذا بالإضافة إلى كتبه الأخرى التي إما ضاعت أو غابَ عنَّا خبرها أو عدمت أونسبت إليه خطأً أو عمدًا أو ضاع نسبها بين المؤلفين .

8-عمر فروخ 2/306-307.

و لعل أشهر كتابين للجاحظ هما: كتاب الحيوان و كتاب البيان و التبين، وهما المدخلين الرئسين لفهم أسلوب و عقليّة و قدرات الإمام الجاحظ .

أسلوب الجاحظ في كتبه:

كتاب الحيوان أكبر كتب الجاحظ حجمًا و أجمعها لفنون العلم و الأدب معًا، وقد جمع الجاحظ في هذا الكتاب كلَّ معيد و كل طريق لأنّه كان يريد أن يحبب العلم إلى الناس لا أن يعلمهم العلم.

و كتاب الحيوان جامع للكلام على أنواع الحيوان و أجناسه و أعضائه و لأحواله وطرق حياته، وقد إستمد معلوماته في هذا الكتاب من القرآن الكريم و الحديث الشريف و من الشعر العربي و أقوال العرب و أمثالهم و إعتمد الجاحظ في هذا الكتاب إعتمادا كبيرا على كتاب الحيوان للفيلسوف اليوناني أرسطو طاليس، إلا أنه كان ينقد أرسطو في كثير من الأمور و في كتاب الحيوان إستطراد كثير إلى ذكر القصص المتعلقة بالحيوان و إلى شيء كثير من الشعر و الأدب و الأخبار و الفلسفة و الكلام [9]، و الكلام على الحياة الاجتماعية ومع أن النقد الأوّل من هذا الكتاب كان حول عوالم الحيوان إلا أنه تعداه إلى مواضيع شتى دفعته اليها عقليته الإستطرادية و رغبته في تحبيب الناس للعلم و جعلهم يعودون إليه و هم على شوق كبير .

إن رغبة الجاحظ في النجاح هي التي جعلته ينتهج هذا المنهج النافع و المفيد وقد كان كتاب الحيوان دائرة معارف حقيقية و جمهرة عربية جامعة لكل ما يتصل بالحياة في الجاهلية .

مؤلفاته :

الحق أنّه من المنطق ألا نكثر من الحديث عن الإمام الجاحظ فهو من الشَهرة بحيث يمكن الإستغناء عن إعادة الترجمة له و لحياته التي أصبحت تعرض نفسها على جموع المطالعين لتواريخ الأدب العربي.

9- مصدر سابق، ج2/308-309، بدون تصرّف.

كان الجاحظ عَلمًا من أعلام النثر في القرون الأولى، إحتّل الصدارة بإمتياز و بدون منافس يمكن أن يقف في وجه أمير البيان العربي القديم .

غير أن هي التي تحتاج إلى إستجلاء و تعريف وقد طبع عنها الكثير و ضاع منها الكثير و بقيت أخرى على أمل العثور عليها .

وها هي قائمة إسمية لبعض حركة طباعة كتب الجاحظ نسردها تباعا حسب المتاح:

1- البخلاء: نشره فاتن فلوتن ليدن بريل سنة 1900 ثم بالقاهرة سنة 1905 نشره العوامري والحارم .

2- البيان و التبيين: القاهرة المطبعة العلمية 1311-1312 ه نشره محب الدين الخطيب القاهرة طبعة الفتوح سنة 1914م

- نشره السندوسي القاهرة المكتبة التجارية الكبرى سنة1932م
- و نشره عبد السلام هارون القاهرة لجنة التأليف و الترجمة والنشر سنة 1948-1950.

3- كتاب الحيوان: القاهرة الساسي سنة 1325هـ. و نشره محمد عبد السلام هارون القاهرة

سنة 1938-1945م.

4- الترييع و التدوير: (بلا) تاريخ و منسق المعهد الفرنسي سنة 1955م.

5- رأي الجاحظ في الأمويين و معاوية نشره عزت العطار القاهرة عزت العطار سنة1946.

6- ثلاث رسائل فاتن فلوتن، ليدن بريل 1903م فنكل القاهرة المطبعة السلفية 1344هـ.

7- فلسفة الجد و الهزل، رسالة الجد و الهزل و رسائل أخرى عني بنشرها محمد علي الزعبي، بيروت منشورات حمد بلا تاريخ .

8- كتاب العثمانية، نشره و حققه محمد عبد السلام هارون القاهرة دار الكتاب العرب سنة1955م.

9- مناقب الترك القاهرة مطبعة مصباح الشرق 1898 .

10- القول في البغال: بلا تاريخ ومنسق بيروت دار المكشوف1957.
11- تهذيب الأخلاق، محمد كرد علي دمشق سنة 1924[10].

و هناك كتب كثيرة طبعت للجاحظ سواء التي هي له يقينا أو التي هي موضع شك وريبة، وعلى العموم فقد كان الجاحظ كما أراد هو نفسه و كما أراد لوجوده أن يكون . لقد إستطاع أن يثبت حضوره و كان فعلاً حضورًا متميزًا .

دراسات عن الجاحظ و جهوده:

صحيح أنَّ الجاحظ حظي بإهتمام عدد كبير من الباحثين و صحيح أيضا أن إمكانات أنجزت ضمن هذا الحيز نلاحظ إهمالاً نسبيا لقضايا جوهريّة تتعلق بالإهتمام الفكري متعدد الأبعاد الذي عرف به الجاحظ ثم إهمالا يكاد يكون مطلقًا للربط بين فكره البياني و فلسفة الإعتزال التي آمن بها و انعكست في مجمل آثاره .

- و يمكننا أن نقسم تقسيما تقربيا- الأبحاث التي أنجزت عن الجاحظ إلى نوعين :

1- دراسات إهتمت بحياة الجاحظ و ثقافته و عصره و تراثه دراسوا التراث في ضوء الحياة الشخصية و ثقافة العصر، فتوصلوا إلى نتائج قيّمة و جادة، يستوعب القارئ بالإطلاع عليها مرحلة تاريخية تميزت – كما يعكس ذلك فكر الجاحظ و إبداعه الفني، بفتح العقل العربي المتعطش للمعرفة و بالعطاء العلمي الذي جاوز حدوده الإجتماعية الضيّقة ليشرف على الأبعاد الإنسانية و التاريخية فيفيد في تطور المجال الثقافي بصفة عامة [11] .

ومن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر كتاب شارل بيلا الذي صَدَرَ في مارس سنة 1953 بعنوان: الوسط البصري و تكوين الجاحظ و هو دراسة تنطوي على جُهْد كبير في إطار فهم الجاحظ ضمن الوسط الإجتماعي الإقتصادي و السياسي و الفكري الذي عايشه وقد إهتم فيه الباحث أساسا .

10- عمر فروخ تاريخ الادب العرب 315/2.

11- إدريس بلمليح الرؤية البيانية عند الجاحظ – دار الثقافة ط1، 1984-ص16 وما بعدها .

بوصف البصرة تاريخيا و جغرافيا، و بتوضيح معالم مجتمعنا و عقائد أفراده و طبقاته لينجز مشروعـــــه الرئيسي المتمثل في كتابـــــــــه، و هو دراســـــــــة تراث الجاحظ ضمن شروط البيئة والمجتمع اللذين ظهر فيهما .

وقد لخص شارل بيلا ذلك قائلا:"إنَّ عملنا هذا بمثابـــــــــــة توطئـــــــــة لدراســـــــة الجاحظ وهو و إن كان بحكم الأمور محاولة لدراسة البصرة في القرنين الأولين فهو ضمن معلومات يحسن بنا ألا نهملها.."[12]

وقد جاء الكتاب وفق الخطة التالية :

الفصل الأول : البصرة في القرنين(1) و(2) هـــ:ـــ

1-المصادر

2-تأسيس البصرة

3-توسع البصرة

4-موقعهـــــــــــــــــــــــــا

5-الإقليـــــــــــــــــــــــــم

6-مشكلة الماء

7-المواصلات الخارجية

8-سكـــــــــــــــــــــــــــــــان البصرة

9-تطور البصرة التاريخي

الفصل الثاني : الجاحظ في البصرة

1-ولادة الجاحظ

2-أصل الجاحظ

3-إســـــــــــــــــم الجاحظ

4-شكلـــه

5-طفولتـــه

12-. مصدر سابق ص17.

6-حداثتـــــــــــــــــــــــــــــــه

الفصل الثالث : الوسط الديني السني

1-علـــو
م القرآن

2-المصاحف و القراءات

3-التفسير و علومـــــــــــــــــــــــه

4-الـــحديث

5-الـــــــــــــــــــتصوّف

الفصل الرابع : الوسط الأدبي

1-لغة التخاطب في البصرة

2-التـــاريخ

3-النثـــــــــــــــــــــــــــر الفني

4-الشعـــر

الفصل الخامس : الوسط السياسي الديني

1-إتجاهات المجموعات القبلية

2-العثمانيـــــــــــــــــــــــــــــــــــة

3-الشيعة في البصرة

4-مذهب الخوارج في البصرة

5-الزندقـــــــــــــــــــة و الشعوبيـــــــــــــــــــــــــــــة [13]

و هكذا إرتأينا أن ننقل جل فصول هذا الكتاب المهم حتى نضع قارئ رسالتنا هذه ضمن الحيز الذي إخترناه لدراسة الجاحظ – فقد أعطت لنا هذه الخطـــــــــة صورة كاملة عن الجاحظ و بيئة و ظروف نشأته رغم أن المؤلف هو مستشرق .

13- شارل بيلا – الجاحظ – ديوان المطبوعات الجامعية، ط1 ، 1985 ، ص 444 وما بعدها .

ومن هذا النوع أيضا دراسة الدكتور طه الحاجري لحياة الجاحظ و آثاره – و هي دراسة تصدت بدقة فائقة للمراحل الأساسية في حياة الجاحظ و للأطوار التي خضعت فكشفت عن تربيته و تكوينه الثقافي و أساتذته ثم ربطت بين هذه الأطوار و بين آثاره بإحكام دقيق دون أن ينسى صاحبها بأن الجاحظ فرد ضمن مجموعة بشرية يجب أن يفهم فكره و تراثه في إطار تطورها العام و حياتها متعددة الأبعاد و هو ما قاد د– طه الحاجري في بداية كتابه إلى الحديث عن البصرة بإعتبارها منطقة خضعت لمراحل تاريخية مختلفة ومتنوعة و قبل الحديث عن المجتمع الإسلامي داخل هذه المدينة، و جملة التأثيرات التي خضع لها الجاحظ في تكوينه و إنتاجه .

و لعل أهم ما حققته هذه الدراسة من نتائج يكمن في أنواع الربط بين كتب الجاحظ ورسائله و بين حياته و تكوينه العلمي إذ لاشك أن تنوع تراث أبي عثمان و كذلك إختلاف الباحثين و شكهم في جزء غير هين من الكتب التي نسبت له أو تعد من عمله، من الأمور الشائكة التي تطرح على الباحث عددا الأسئلة، لابد من الإجابة عنها و التصدي بالتالي لربط حياته و تكوينه الثقافي لحياته [14].

ولقد كثرت الدراسات حول إمام البلاغة بلا منازع و تناولته الدراسات تناولا من كل الجوانب، فهناك من درس الجاحظ معتزليا و موارد هذه الحركة الاعتزالية و هناك من درس فن النادرة عند الجاحظ، و هناك من درس منهج الشك و الإستقراء و هناك من درس المنحى الفلسفي عند الإمام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ كما فعل الدكتور"علي بوملحم" [15]، وكما فعل غيره .

و هناك من خص البلاغة عند الجاحظ بشيئ من التفصيل و بالجملة فإنه يستحق حقيقة الأمر أكثر من ذلك بكثير .

لقد إخترنا في هذه المذكرة أدب الرسائل عند الإمام الجاحظ و هو موضوع لا نعلم من تطرق إليه حسب البحث الذي بحثناه عن طريق الإستعانة بالكتب المختصة وبالشبكة

14- ادريس يلميلح مصدر سابق، ص18، و ما بعدها بدون تصرف .

15- ، ص19، وما بعدها، بدون تصرف.

العنكبوتية فلم نجد سوى دراسات عامة و مقالات لا تصب في الخانة التي خصصناها لبحثنا .

و عليه يكون هذا البحث شاقا لطريق وسط ندرة المراجع المتعلقة بالموضوع و ليس بالجاحظ ومع ذلك سنحاول جاهدين قدر المستطاع أن نصل إلى نتائج طيبة بإذن الله .